بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

أي صدام.... أي حوار؟؟

كأن جداراً عملاقاً من الحديد والإسمنت قد فصل بين الشعوب، وتريد هذه الشعوب أن تحطم هذا الجدار لتتحاور أو لتتصادم، لقد صنع بعض المفكرين الغربيين هذا الجدار من الوهم والتخيل استناداً على رؤية رأسمالية فوقية، واستناداً على تخطيط خبيث يهدفون من ورائه التمهيد النفسي والعقلي لسيادة القطب الواحد، سيادة الثقافة الواحدة، والقيم الواحدة، والتربية الواحدة، سيادة العرق الأنجلو ساكسوني الصهيوني.

لقد افترض هنتنغتون أن صداماً للحضارات لا بد حاصل مفترضاً أن التكنولوجيا الأمريكية والصناعية بشكل عام حضارة بكل المقاييس، ويريد من وراء ذلك أن يقول: إن الصدام لا بد حاصل بين الدول المتخلفة والدول الصناعية، ومفترضاً أيضاً أن التخلف سمة الشرق، وحضارة الشرق، ومفترضاً أن التقدم الغربي سمة الغرب، وحضارة الغرب، لماذا يُطلب الآن ما يسمى حوار الحضارات؟ ولماذا أيضاً يمهد هؤلاء المفكرون لما يسمى صدام الحضارات؟

لو دققنا بشكل موضوعي لهذه المفاهيم نرى أن آلية غربية للتعامل مع الشرق الإسلامي حكمت الرؤية الغربية الفوقية منذ زمن بعيد، فهم أي: الغربيون قصدوا ديار العرب والمسلمين محتلين غازين، واستطاعوا بقوة السلاح تثبيت استعمارهم بضعة عقود.

صحيح أنهم واجهوا مقاومة هنا وثورة هناك ولكنهم لم يواجهوا صداماً بالمعنى الشمولي، لقد فرضوا بأنفسهم الاحتلال وفرضوا بأنفسهم الحوار، فكان الحوار حوار الغالب للمغلوب وليس حوار النديّن المتشابهين بالقوة والإمكانات والنفوذ والسيطرة.

واليوم وبعد أن رأى العالم انكفاء الاستعمار العسكري المباشر تخرج لنا أصوات غربية تطرح مفهوم العولمة تارة، ثم تطرح الثقافة الكونية تارة أخرى، ثم تعدل عن هذا وذاك لتطرح مفهوم حوار الأديان، ثم ما تلبث أن تثير زوبعة صدام الحضارات، وهكذا فإن العالم العربي والإسلامي يتلقى هذه المفاهيم ويشغل فكر أبنائه بها فتُشتت الأفكار، وتتصارع العقول، والغرب بقضه وقضيضه يضرب هنا تحت شعار محاربة الإرهاب، ويهدد هناك تحت شعار الخروج عن الإجماع الدولي العالمي، ويلمح بالغزو تارة، وبالعقوبات تارة أخرى، وأصبح كأنه قدر إلهي لا راد لقضائه، ولا احتجاج على سطوته وطغيانه.

وعندما يطرحون مفهوم الحوار يدركون أن الضعفاء لا يحاورون إنما يتلقون، لكنهم يصرون على تسميته بالحوار علهم يجفّفون النفوس والعقول فتخنع ساكنة لا حول لها ولا قوة. من الذي يفرض الصدام أيضاً؟

أليس الذي يمتلك الإمكانات العسكرية والتكنولوجية والمالية؟ هل سبق للعرب والمسلمين أن فرضوا صداماً على أحد أو حواراً على أحد؟ حتى في أسوأ أوضاعهم السياسية، لم يفرضوا حواراً أو يفترضوا صداماً.

إن العقلية الغربية تحكمها معايير قديمة ترسخت كالجذور في المجتمعات الغربية، معايير العرقية والعقائد المادية والبربرية المتوحشة، فلذلك افترضت هذه العقلية أن الخطر القادم والمحتمل الأكيد بعد انهيار الشيوعية هو الإسلام، ومنذ بدأ يشيع هذا الافتراض توالت الحملات الفكرية على الإسلام، وبين الفينة والأخرى يخرج صوت غربي لينفث سمومه القديمة ضد الإسلام والحضارة الإسلامية.

وبينما يُدفع بعض رجال الدين الغربيين ليطرحوا مفهوم حوار الأديان يخرج رئيس وزراء إيطاليا ليهاجم الحضارة العربية الإسلامية والشخصية العربية الإسلامية، ويخرج رئيس الولايات المتحدة الأمريكية ليصف الحرب على الإرهاب بأنها حرب صليبية جديدة، بينما يخرج آخر ويرى أن منبع الإرهاب هو الشرق العربي الإسلامي ويجب محاربته بكل ما يملك الغرب من إمكانات.

إذن من الذي يفرض الصدام؟ ولما كان الإسلام بما يحمل من قيم ومثل وروح قرآنية إلهية هو الدين الثابت من حيث عقيدته ونبوته وشرائعه وتطلعاته وشخصيته فإنه من المحتم سوف يحارب لأنه يقف صخرة عثرة دائمة أمام سيطرة الاقتصاد والثقافة والفكر، أمام الظلم والطغيان، أمام الإباحية والفوضوية الاجتماعية.

إن العولمة المفترضة من قبل الغرب لا تريد حواراً أو صداماً، إنما تريد تصفية للثوابت القيمية الدينية، وتصفية للتاريخ، وتصفية للتراث الإسلامي الذي يتراكم كمّاً ونوعاً منذ أربعة عشر قرناً وحتى الآن.

ولأن الغرب يفتقد لما يسمى حضارة أطلق على تقدمه التكنولوجي الحضارة العلمية المعاصرة، وهو يدرك أن الحضارة مادة وفكر عمران وثقافة، عقيدة وبناء وأنه حين يطرح مرةً حوار الحضارات فإنه يضع نفسه موازياً أو أعلى من مواز للحضارة العربية الإسلامية، وحين يطرح مرة أخرى صدام الحضارات فإنه يعني صدام القيم المادية المتوحشة مع القيم الإسلامية الروحية الإنسانية، ويفترض بعض الذين أغوتهم المقولات الغربية أن الحوار مع الغرب هو واجب على الشرق لأن أهل الشرق هم المستفيدون من مفاهيم الديموقراطية والحرية، فالغرب الديموقراطي أعطى للإنسان حقوقه الإنسانية جميعها، وعلى المجتمع العربي أن يتقبل هذه المفاهيم لأنه بحاجة إليها حتى يتخلص من كل أشكال الديكتاتورية وقمع الحريات.

وكل ذلك ليس بعيداً عن السياق العام لمفهوم العولمة الذي يطرحه الغرب حتى يتخلص من كل ما يسمى حواراً أو رداً على الهيمنة الغربية.

وعلى نفس الطريق فإن آليات التمهيد لتلك العولمة التي يريدونها تفترض أن يكون في أيديهم كافة وسائل الإعلام، وسائل إعلام غربية، ووسائل إعلام صهيونية، وإعلام تغريبي ينفذه أبناء العرب والمسلمين كصدى لصوت الإعلام الغربي والصهيوني.

وفي هذه الحال فإن من المحال أن يرضى العقل العربي أن يكون صدى لما يقوله العقل الغربي، وفي هذه الحال لابد من الصدام ولابد من الصراع، الهوية العربية الإسلامية في مرمى التهديد بالتلاشي، التراث العربي الإسلامي مطلوب منه أن

obeikandl.com

يُنسى تماماً، شخصية الرسول محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ يجب أن تُمحى من الذاكرة، القرآن الكريم يجب أن تحذف منه جميع الآيات التي تتناول بني إسرائيل، أو تتناول الجهاد والحض على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

التاريخ كله يجب أن يمحى، معارك الشرف والجهاد من أجل تحرير الأراضي المغتصبة يجب أن تشطب فلا يرموك ولا حطين ولا خيبر ولا قريظة ولا قادسية ولا غيرها.

هكذا يفترض الغرب اليوم أن يكون العالم العربي والإسلامي، لكن الأمة العربية والإسلامية وعلى الرغم من كل ما يسود فيها من مظاهر الضعف والتفسخ لا يمكن أن تنسلخ من جلودها وتراثها وعقيدتها وتاريخها، فلا بد من أن تدافع كل أمة عن هويتها وشخصيتها، وهذا الدفاع سيؤدي حتماً إلى الصدام مع الغرب وعندها يفترض الغرب ـ كما هو يفترض اليوم ـ أن صدام الحضارات لا بد أن يحدث إن عاجلاً أو آجلاً، متناسياً أن هذا الصدام هو الذي صنع أسبابه ومسبباته، ودبر خطوط مواجهته، فلا الصدام حتمية قدرية إنما هو تدبير النفس الغربية والعقلية المستعلية والمتعالية، ولا العولمة قدر إلهي افترضه الله علينا إنما هي آلة متوحشة تكتسح الهوية كما تكتسح الاقتصاد، وتدمر الشخصية كما تدمر الحدود بين الخير والشر، وتخلط بين الحرية والفوضى، وبين الكرامة والامتهان، وبين الشرف والرذيلة، وبين الأسرة الشرعية وزواج المثلين، وبين الشهامة والخيانة، وبين مدارس الدين والأخلاق ومدارس تعليم الجنس والرقص وعلب الليل القذرة.

أي حوار وأي صدام؟ هل الغرب يتخلى عن فوقيته ويتنازل عن عنصريته وعنجهيته وطموحاته في السيطرة على بترول العالم وصناعة تكنولوجيا العالم؟ هل يتخلى الغرب عن تفكيره بأنه من عرق أنقى وعنصر أرقى؟ وعندما يتخلى الغرب عن هذه المفاهيم يبسط على طاولة البحث مفهوم الحوار، وإلاّ فإنه بهذه العقلية يفرض الصدام حتماً، فليس البشر مخلوقات من مستوى أدنى ولا حضارات الشعوب نفخة ساحر كاذب تتلاشى بمجرد نفخة أخرى.

لقد بدأت حضارة المسلمين ترسخ عمرانها وقيمها وعلومها وفلسفاتها منذ أربعة عشر قرناً، والشواهد العمرانية والعلمية والفلسفية والقيمية ما تزال حاضرة للعيان والعقول شاهدة على أن في هذا الحوض العربي الإسلامي أمة حية لم تمت ولن تموت في ظل عولمة لا يعرف منها إلا إلغاء الحضارات وقيمها، وإلغاء العقائد ومبادئها.

وإذا كان الغرب يرى في حضارة الإسلام وقيم الإسلام عقبة قوية في طريق اكتساحه للعالم فإنه سيسعى حتماً وبكل ما أوتي من عنهجية وقوة مدمرة وإعلام وإغراءات لتدمير هذه العقبة، وهذا التدمير حسب قناعتنا لن يتم، لأن الصدام الذي يفرضه الغرب هو صدام الشر بالخير وأنى للشر أن ينتصر مهما ظهر في بدايات الصراع من نصر كاذب له على الخير وقيم العدالة الحقيقية التي رسخها القرآن الكريم كمفهوم صالح لكل الشعوب التي تريد الخير لأبنائها والسعادة لبني البشرية بأسرها، إن النصر القادم بعد هذا الصدام سيكون إنسانياً شمولياً، وليس قومياً أو وطنياً ضيقاً، لأن حتمية انتصار الخير ليست فلسفة وضعية وقوانين بشرية، إنها كلمة الله التي أراد لها أن تكون حاضرة موجودة على الأرض كلها.

ومن هنا فإن إضاءة الموضوع تحتاج لوقفة متأنية، ورجعة إلى الوراء، ولنظرة للمستقبل ننظر للحضارة ومكوناتها، وننظر للأديان وتداعياتها في النفوس والعقول والمواقف، وننظر إلى الثقافة قديمها وحديثها، وإلى الهوية التي احتشدت في عجينتها كل تلك الثقافة والحضارة والدين.

من هنا فإن المشكلة برمتها ترتبط بالإجابة عن سؤال مشروع من نحن؟ ما هويتنا؟ حتى نقرر أن الحضارة ستتصادم مع التكنولوجيا وتنتصر عليها، أو تتحاور معها إذا وجد متسع من الوقت للحوار.